روضة الحكايات!!
(٣)

أعلَمُ منِّي ومن ابن حَنبل والشافعي!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

الحكمة ضالّة المؤمن

قُبيلَ صلاةِ الجمعةِ اتفقَ الأصدقاءُ علىٰ الالتقاءِ في المسجدِ الكبير ، وذلك بهدفِ حضورِ الصلاةِ وسَماعِ خُطبةِ الجمعة ، ثم التوجُّهِ إلىٰ مَزرعةِ والد (نادر) .

وهكذا حَدَثَ بالفعل ، وفي المزرعةِ ، حيثُ الجوُّ الهادىء والجميل ، والأشجارُ التي اكتستْ باللونِ الأخضر ، إضافة إلىٰ الورودِ والزهورِ التي تملأ المكانَ بأَريْجِها ، بينما الطيورُ ـ وخاصة العصافير ـ تَصْدَحُ بالأصواتِ الجميلة ، وعلىٰ اليمين يَنسابُ النهرُ المتدفّقُ الذي يَقسمُ المزرعةَ إلىٰ قسمين ...

وراحَ الأصدقاء يتحدّثون عن أيامِ الامتحاناتِ وعن التَّعَبِ أثناء الدراسةِ وعن الذكرياتِ الجميلةِ ، وفجأة قال (لؤي) : ما رأيكُم في أن نَتحدَّثَ عن أهمِّ الفوائدِ التي حصّلْناها من سماعِنا لخطبةِ الجمعة اليومَ؟

ورحَّبَ الأصدقاءُ بالفكرةِ ، وقال (سعيد) : فماذا استفدتَ أنتَ يا لؤي؟!

... واعتدلَ (لؤي) ثم تَنَحْنَحَ قليلاً.. وقَطَّبَ حاجِبَيه... وحَمَلَ عصا كانتْ ملقاةً تحتَ شجرةِ المشمشِ القريبةِ منه ، ثم نَظَرَ إلىٰ أصدقائه...

فما كان من الأصدقاء إلا أنْ ضَحِكوا... فقال (صالح) : يبدو أنك ناجحٌ في تمثيلِ الأدوارِ الجادّة ، ولعلك تكونُ في المستقبلِ خطيباً مُفَوَّهاً ، أو مُمَثّلاً للأدوارِ التاريخية أو الجادّة!

... ثم قال (لؤي) : أيها السادةُ ، أيها الأحبّةُ ،

لا أريدُ أن أُطيلَ عليكم وكما قيل : (اللبيبُ من الإشارة يفهم) ، فسأروي لكم قصةً واحدة ، حدثتْ مع الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ ، وفيها من المواعظ والحِكَم الشيءُ الكثير : في كثيرٍ من الأحيان كان الإمامُ لا يجلس باتجاه طلابه جلسةً محكمة ، وحينما سأله واحدٌ من كبار طلابِه عن السرِّ في ذلك .

أجاب : ما مَدَدْتُ رِجلي نحو دارِ أستاذي حمّاد بن أبي سليمان ، إجلالاً له ، وكان بين دارِه وداري سبع سكك!!

وصَفَّقَ الشبابُ تصفيقاً حادّاً... ، بينما كان (لؤي) يُمازِحُهم بقوله : أنا لا أحبّ المدْحَ كثيراً... ولا داعيَ للتصفيقِ ، ثم قال وهو يضحكُ : فنحن العلماءَ لا نَهتمُّ بالمدْحِ والإطراء ، إنما يهمّنا تفهيمُ الناسِ وتعليمُهم...!

وساد جوٌّ من الفكاهةِ والتندُّرِ ، ثم تناولَ الأصدقاءُ قليلاً من الطعام..

ومارسوا بعضَ الأنشطةِ الرياضيّة... وسَعِدُوا بالساعاتِ التي قَضَوها في الهواء الطَّلْق.. وبين أحضانِ الطبيعةِ الخلابة...

حتىٰ إذا حانَ وقتُ غروبِ الشمس ، هُرِعَ الأصدقاءُ باتجاهِ البلدة... ، ثم ودّع بعضُهم البعض ، علىٰ أملِ اللقاءِ عمّا قريبٍ...

* * *

... صاحب أدبٍ رفيع

... وبعد أَنْ وصل (لؤي) إلىٰ بيته ، سلّم علىٰ والدتِه ، ثم توضَّأَ وصلّىٰ صلاةَ المَغرِبِ ، ثم قَرَّبَ الكرسيَّ إلىٰ جِوارِ والدتِه وجلسَ عليه... ، ونظر إلىٰ والدِه فرآه مستغرقاً في قراءةِ كتابٍ بين يديه...

فقطع عليه استغراقَهُ بالقولِ : ما هذا الكتابُ الذي تُطالعُه يا والدي؟

رفعَ الوالدُ رأسَه وقال : تعالَ يا بنيّ ، تعالَ وانظرْ إلىٰ تلك الأخلاق الرفيعةِ والآداب السامِقَةِ التي كان الأجدادُ يتحلَّون بها... ، إنه أحدُ عمالقةِ القرنِ الثالث الهجري العلامة أبو عُبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالىٰ..

وراحَ الوالدُ يُحدّثُ ابنَه عن أدبِ (ابن سلام) وعن حِلْمِه وعن وَرَعِه وعن وَقارِه ونحو ذلك...

فخَطَرَ ببالِ (لؤي) خاطِرٌ رهيب : لماذا لا أكتبُ ترجمةً وافيةً عن ذلكم العالمِ الفقيه ، ثم أقدِّمُها لإدارةِ المعهد ، عسىٰ أن تتمَّ الموافقةُ ، لأقومَ بإلقائها علىٰ الناس ، فأنال رضا الله ورضا الناس...؟!

... واقتربَ (لؤي) من والدِه... واقترحَ عليه ما دارَ في خَلَده .

ومباشرةً رحَّب والده بالفكرة ، وراح يشجّعه علىٰ ذلك ، وطلب من والدته أن تدعوَ اللهَ له بالتوفيق ، ليكون شاباً ناجحاً متفوّقاً .

ثم أخرج والدُه ورقةً وكتبَ عليها أسماءَ المَراجعِ والمَصادرِ المتعلقةِ بترجمةِ حياةِ (ابن سلام) ، ثم أعطاها لابنِه (لؤي)... وقال له : كلّ

تلكَ المراجعِ والمَصادرِ تجدُها في المكتبةِ الوطنية ، فما عليك إلا الجِدُّ والنشاطُ ، لتتفوّق علىٰ (سعيد) و(صالح) وغيرهما...

... أَجَلْ!

إنها فكرةٌ رائعةٌ ، هكذا قال (لؤي) ، وبإذنِ الله ستكونُ محاضرةً قيّمة ، بحيث أستفيدُ أنا ، ويستفيدُ الآخرون .

وفي صبيحةِ يومِ السبت انطلقَ (لؤي) إلىٰ المكتبةِ ، وانهمك في المطالعةِ والبحث حتىٰ إذا كانَ المساءُ ، عاد إلىٰ البيت وقد جَمَّعَ بعضَ المعلوماتِ عن القاسم بن سلام ، وكان هذا الملخَّصَ المفيدَ ـ والذي ألقاه بعدَ أيامٍ في المعهد .. :

* * *

مَنْ هو أبو عُبيد؟!

في أيامِ عزِّ الدولةِ العباسية وازدهارِها وخاصةً في الجانب العلميّ ، حيث كانتْ بغدادُ حاضرةَ الخلافةِ ومَحَجَّ العلماءِ من كلِّ مكان و... ، وتحديداً سنة (١٥١هـ) وُلد القاسم بن سلام ، وكان ذلك في مدينة (هراة) ، والتحقَ بالكُتّاب ، ثم رحل إلىٰ العراقِ ، فطَلَبَ الحديثَ ، ودَرَسَ الفِقهَ ، واهتمّ باللغة العربية...

وعُيّن القاسمُ بِمَنْصِبِ القضاءِ في طرسوس ، وبقيَ أكثرَ من ثماني عشر سنة ، وكان محبوباً من قِبَلِ الوزراءِ والأمَراء ، يطلبون منه تأديبَ أولادِهم ، ويَحترمونَه ، ويُقدّرون عملَه...

ولم يَكْتَفِ من العلومِ ومجالسةِ العلماءِ في

بغداد ، فرَحَلَ إلىٰ مصرَ والشامِ ومكةَ والمدينةِ المنورة ، وهناكَ عَكَفَ علىٰ المطالعةِ والتدريس... وتعليمِ الناسِ أمورَ الدّين ، حتىٰ وافتْهُ المنيّةُ وهو في مكةَ ، وذلك في سنة (٢٢٤هـ) ودُفِنَ بها...

* * *

.. إنه العلم... والتضحيات!!

... وعاش (أبو عبيد) جُلَّ حياتِه للعلم ، فعَكَفَ علىٰ مطالعةِ كثيرٍ من العلوم ، ومن أهم الذين أخذَ عنهم العلمَ : الأصمعي ، والكسائي ، والفـرّاء ، وسفيـان بـن عيينـة ، وعبـد الله بـن المبارك ، وغيرهم كثير .

أما مشايخُه في الفقه ، فأهمُّهم : محمدُ بن الحسن الشيباني ، وأبو يوسف ، وشريك بن عبد الله النخعي ، وكان في ذلك من أقرانِ الشافعيّ رَحِمَهُم اللهُ جميعاً..

ومن تلامذتِه الذين نَقَلوا عنه كثيراً من العلومِ - علماً أنّ بعضَهم كان مِن مشايِخِه - أحمدُ بن حنبل ، والبخاريُّ ، ووكيع ، ويَحيىٰ بن مَعينٍ...!

وتَتَلْمَذَ علىٰ يديه : ابنُ أبي الدنيا ، والدارِميُّ ، والبَلاذُرِيُّ ، وغيرُهم...

وعُرِفَ عنه شدةُ الأدبِ مع العلماء ، ومدىٰ شوقه وحرصِه علىٰ تحصيلِ العلومِ ، حتىٰ إنه قال : ما أتيتُ عالماً قطّ فاستأذنْتُ عليه ، ولكنْ صَبَرْتُ حتىٰ يَخرجَ إليّ ، وتأوّلْتُ قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٥] .

كما اشتُهِرَ بفرحِه الشديدِ عندَ تحصيلِه بعضَ الفوائدِ العلميةِ ، من ذلك ما رواه عن نفسِه ، فقال :

زرتُ أحمدَ بن حنبل ، فلما دخلتُ عليه بيتَه ، قام فاعتنقَني ، وأجلسَني في صَدْرِ المَجْلِس ، فقلت : يا أبا عبد الله! أليس يُقال : صاحبُ البيتِ أو المجلس أحقُّ بصَدرِ بيته أو مجلسه؟ قال : نعم ، يَقْعد ويُقْعدُ مَنْ يريد ، قال : فقلتُ في نفسي : خُذْ إليك أبا عبيد فائدة .

ثم قلت : يا أبا عبد الله! لو كنتُ آتيك علىٰ حقٍّ ما تستحقُّ ، لأتيتُكَ كلَّ يوم ، فقال : لا تَقُلْ ذاك ، فإنّ لي إخواناً ما ألقاهُم في كل سنة إلا مرةً ، أنا أوثقُ في مودّتِهِم ، ممّنْ ألقىٰ كلَّ يوم ، قال : قلتُ : هذه أخرىٰ أبا عبيد .

فلما أردتُ القيامَ قام معي ، قلتُ : لا تفعل يا أبا عبد الله ، قال : فقال : قال الشعبي : (من تَمامِ الزيارةِ أن يُمْشىٰ معه إلىٰ بابِ الدارِ ، ويؤخَذَ برِكابِه) .

قال : قلتُ : يا أبا عبدِ الله! مَنْ عَن الشعبي؟

قال : ابنُ أبي زائدة عن مُجالد عن الشعبي ، قال : قلت : يا أبا عبيد هذه ثالثة!!

وهكذا بَرَعَ (أبو عبيد) في كثيرٍ من العلوم ، حيث (اعتُبر مَرْجِعاً ومُرَجِّحاً فيها ، وله آثارٌ في ذلك ، وأهمُّها : علومُ العقائد والفرق ، وعلومُ

القرآن ، وعلوم الحديث ، وعلوم الفقه ، وعلوم العربية ، وعلوم التاريخ ، و...

لذلك مَدَحَه كبارُ العلماءِ وأَثْنَوا عليه ، من ذلك ما قاله الجاحِظُ :

ابــنُ ســلام ، مــن المعلِّميــن ، ثــم الفقهــاء والمحدّثين ، ومن النحويين والعلماءِ بالكتاب والسنّةِ ، والناسخِ والمنسوخِ ، وبغريبِ الحديث ، وإعرابِ القرآن و... .

ومن ذلك قولُ (ابن راهَوَيْهِ) : الأئمةُ في زماننا : الشافعيُّ ، والحُمَيديُّ ، وأبو عُبيد...

وكيف لا يكون لأبي عبيد من أمثالِ ذاك الثناءِ والتقديرِ ، وهو الذي ضَحّىٰ بكلِّ ما يملكُ من أجلِ تَحصيلِ العلمِ ، ثم ترتيبِه وتَصْنيفِه وتَهذيبِه ، ثم تَقديمِه للناسِ ، ليكونَ النفعُ والخيرُ به إلىٰ يوم الدين..

أجل! لقد أمضىٰ (أبو عبيد) مدة أربعين سنة وهو يصنّف كتابه (غريب الحديث) حيث جمع فيه أكثر من (١١٠٠) حديثٍ وأثر...!!

أولئـك آبـائـي فجِئْنـي بمثْلِهِـمْ
إذا جَمَعَتْنـا يـا جَـريـرُ المَجـامِـعُ

والحمد لله رب العالمين

* * *